

تجارة الرقيق الأوروبية وأثرها على شعوب غرب القارة الإفريقية بين القرنين (15 - 19م)

عطية عبد الكامل

أستاذ مساعد بجامعة المسيلة - قسم التاريخ - الجزائر.

البريد الإلكتروني : abdelkamel18@yahoo.fr

يعد موضوع الرق وتجارته في إفريقيا من أشد الموضوعات حساسية وأكثرها مدعاة لاختلاف الرأي في التاريخ الإفريقي، وعلى الرغم من أنه كتب عن تجارة الرق والرقيق الكثير إلا أن معظمهم ما كتب بحاجة إلى نظرة جديدة مع التسليم في الوقت نفسه بأن استخلاص الحقائق المجردة ووضعها في قالب موضوعي مهمة شاقة إن لم نقل متعسرة. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الموضوع لا يزال يثير حساسية خاصة لدى الإفريقيين ويزيد من تعقيد هذه الصورة أن بعض الإفريقيين استرقوا بعضهم بعض وأسهموا بالوساطة في تجارة الرقيق سواء كان ذلك للتاجر العربي أو الأوروبي(1).

تعتبر الفترة التي سادت فيها تجارة الرقيق(2) من أسوء الفترات في تاريخ البشرية، إذ تمثلت فيها أبشع معاملة لإنسان نحو أخيه الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على سائر المخلوقات. فكلما ذكرت تجارة الرقيق كلما تداعت أمامنا الصور البشعة للإنسانية التي أتخذها الإنسان كي يجعل منها تجارة مربحة، ضاربا عرض الحائط كل القيم والأخلاق، فكيف يجوز لهؤلاء التجار الجشعين أن يجرموا الأطفال من أمهاتهم وآبائهم وكيف يجوز لهم أن يسرقوا الأولاد كقطعان الماشية أمام آبائهم من الشيوخ الذين لا حول ولا قول لهم، فالإنسان في هذه العملية يسخر إلى جانب الحيوان فاقد الإنسانية(3).

وانطلاقا من هذا المدخل سنحاول من خلال هذه الدراسة المتواضعة الإجابة عن بعض التساؤلات التي تتبادر إلى ذهن القارئ :

- ما هي الدول الأوروبية التي كان لها السبق في بدء هذا النشاط التجاري المشؤوم وما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك؟.

- كيف كانت يوميات الرقيق أثناء شحنهم ونقلهم إلى أوروبا والعالم الجديد؟.

- ما هو موقف الكنيسة الأوروبية من هذه التجارة ؟ ومن هي القوى المستفيدة منها؟.كيف كانت تأثيرها على شعوب غرب القارة الإفريقية ماضيا وحاضرا؟.

لم تكن للأوروبيين قديما علاقة بإفريقيا إلا عن طريق البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يطمحون للاقتراب من مصادر السلع التي تستجلب من الشمال إفريقيا من بلاد السودان(4)، كما كانوا يتطلعون إلى اكتشاف طريق أقصر للوصول إلى الهند. وبدافع الحاجة هذه انطلق البحارة المستكشفون يبحرون المحيط الأطلسي، فاکتشفوا منذ القرن 15م الأرض التي كانوا يجهلون، وأقاموا لهم مراكز تجارية موسمية ثم قارة على سواحل موريتانيا وإفريقيا الغربية(5).

وكان من أهم الدوافع التي خرج لها البرتغاليون من بلادهم هي الحصول على الذهب الذي يتواجد في غرب إفريقيا عند غينيا وساحل الذهب(6)، وعندما اصطدموا بالإفريقيين قبل منتصف القرن الخامس عشر. استولوا على رقيق منهم حملوه إلى لشبونة واكتشفوا أن هذه تجارة مربحة فربطوا بين رحلاتهم الاستكشافية والحصول على الرق حتى وصلوا إلى الهند، وكانوا يسخرون هذا الرق في دفع مراكبهم الشراعية الضخمة واستطاعوا أن يعودوا بأعداد كبيرة منهم إلى أوروبا وقد أقاموا على طول الساحل الغربي قلاعا ومراكز لتزويد السفن وأخذ الرقيق، وهكذا كانت البرتغال من أول من أسهم في جلب الرقيق إلى أوروبا وانتقلت بعد ذلك العدوى إلى بقية الدول الأوروبية الأخرى(7).

وفي سنة 1454م شرع البابا "نيقولا الخامس5 Nicola" سيطرة البرتغاليين على السواحل الإفريقية، مباركا بذلك تجارة الرقيق التي لم تلبث إسبانيا أن بدأت تنافس عليها فتدخل البابا "الأسكندر السادس6 Alexandre" لحسم الصراع برسم خط على الخريطة يوزع مناطق النفوذ بين القوتين، وبمباركة الكنيسة استقطبت تجارة الرقيق اهتمام الدول الأوروبية الأخرى وتكونت شركات انجليزية وفرنسية للنخاسة ترعاها الحكومة(8).

والبرتغاليون هم الذين بدأوا أول حلقة في سلسلة تجارة الرقيق بهذه الصورة الجديدة بين إفريقيا وأوروبا حين قام " نينو تريستاو" البحار البرتغالي Nuno Tristao في عام 1441م بنقل أول شحنة من الرقيق الإفريقي إلى أوروبا، وكان بذلك بناء على إرشادات الأمير هنري وتشجيعه(9).

وقد اتسمت تجارة الرقيق بعد ذلك باتساع النطاق الكشوفات الجغرافية وتطورات أساليبها و أهدافها لمسيرة حركة النشاط الاستعماري الأوروبي وأهدافه حتى قيل أنه في وقت قصير بعد ممارسة البرتغال لهذه التجارة أصبح عدد الرقيق المفقودين إلى مدينة لشبونة يزيد على عشر سكانها في ذلك الوقت(10).

ومنذ أوائل القرن السادس كان الرقيق قد اخذ يشحن إلى أمريكا وإلى كوبا ففي عام 1521م، وقد بلغ عدد العبيد الذين بيعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة سنة 1539 م ب10.000 عبد ومن ثم لم تستطع الجهود البرتغالية العادية أن تسد الطلبات العادية المتزايدة للرقيق وبدأ استغلال الأسلحة النارية للقنص(11).

لقد كان الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الأوروبية الاستعمارية في إفريقيا وأصبحت هذه السلعة الأساس بنيت عليه الدول الاستعمارية اقتصادها و رخائها وكان الأوروبي لا يخاطر بالتوغل إلى الداخل، فاكتمل بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له العبيد عن طريق الوسطاء ثم يتم نقلهم إلى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برتغالية بقصد الاتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مراسم من البلاط الملكي البرتغالي باحتكار التجارة في مناطق محدودة من الساحل(12).

وقد بالغ البرتغاليون في ارتكاب الجرائم ضد السكان الأفارقة فأتخذوا محضيات إفريقية لإشباع شهواتهم البهيمية. وعذبوا الشيوخ والأطفال. وحتى رجال الدين المسيحي، شاركوا في ارتكاب هذه الجرائم ومارسوا الخطف والسلب واعتدوا على حرمان النساء باسم المسيحية(13).

أما الإنجليز فكانت سفنهم محملة بالرقيق تقوم برحلة مثقلة فتنتقل المصنوعات الإنجليزية لغرب إفريقيا، حيث تستبدل بالرقيق وبلغ عدد ما وصل بين سنتي (1690-1706م) إلى

الممتلكات البريطانية من الرقيق ما يقارب من مليونين ونصف مليون عبد، وإذا رفنا أن النظام الذي اتبع ترتب عليه أن ما يصل حيا من هذه السلعة لا يصل إلى النصف، وإذا علمنا أن ما وصل المستعمرات الأوروبية كلها في قرن واحد قدر بـ 40 مليون إفريقي أدركنا أن القارة الإفريقية استنزفت ما يقرب من 80 مليون من أبنائها، في هذا الميدان و البعض يقدر هذا العدد بما لا يقل عن مائة مليون. (14).

ولا ينسى التاريخ ما قام به الانجليز من جهود في تجارة الرقيق منذ القرن 16م. حيث كان القرصان الانجليزي "سرجون هوكنز Sirjohn Haukins" أول بريطاني ينادى بجدوى تجارة الرقيق إلى تحقيق أرباحا تفوق الأرباح التجاري في الذهب أو العاج، وقد بدا مغامراته في هذا المجال عندما رسا في سيراليون لأول مرة في 8 ماي 1502م ولاسرى 400 إفريقي وباعهم للأسبان في العالم الجديد، وذلك مقابل 25 جنيها للإفريقي وتبعه في هذا المضمار عدد آخر من التجار الانجليز (15).

ومنذ عام 1640م بدا الانجليز يصدرون الرقيق إلى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى في الأمريكيتين، ولما كانت هذه التجارة تدر أرباحا طائلة فقد تحول عدد كبير من الانجليز إلى تجار رقيق حتى أن عدد الرقيق الذين حصل عليهم الانجليز في سنة 1700م بلغ حوالي 15000 عبد تم نقلهم عبر الأطلسي وزاد هذا العدد إلى 40.000 في سنة 1800م ، وبلغ عدد السفن البريطانية التي تعمل بنقل العبيد حوالي 192 سفينة بالإضافة إلى أربعة " للنكستر"، وكانت سعة كل من هذه السفن 500 عبد، وصارت منطقة سيراليون من أهم المناطق الرئيسية للرقيق في القارة الإفريقية، وكان تجار الرقيق يقيمون مخازن وحظائر لحفظ الرقيق المخطوفين وكانت تلك المخازن تقام داخل قلاع وصل عددها في سنة 1741م حوالي 40 قلعة، ولكل من البرتغاليين والدماركيين أربع قلاع ، أما الفرنسيون فكانت لهم ثلاث قلاع (16).

وحين دخل الهولنديون في هذا المجال استطاعوا لفترة أن ينافسوا البرتغال، بل استطاعت سفنهم أن تستولي على المخطات البرتغالية وتحل محل البرتغال في هذا النشاط لفترة، وبعد أن استعادت البرتغال حصونها من الهولنديين نجح الهولنديين في إنشاء محطات خاصة بهم

فكان لهم في الساحل الغربي للقارة حوالي عشر محطات ظلت تعمل في تجارة الرقيق حتى عام 1872م رغم صدور القرارات بمنع هذه التجارة(17).

وفي سنة 1652م أقامت السويد محطة للتجار بالرقيق، واتبعتها بمحطة ثانية، وذلك قبل أن تنجح الدنمارك في سنة 1657م في طردها من الخطتين، وأضافت الدنمارك خمس محطات أخرى استمرت قائمة حتى عام 1850م.

أما بروسيا فقد قامت ببناء ثلاث محطات في سنة 1615م لكنها تخلت عنها بعد أربعة عشرة عام من إنشائها.

وكانت لفرنسا مراكز لتجارة الرقيق في جزر (جوار Gorée) القريبة من دكار، وكانت تقوم بالنشاط التجاري في هذه الجزر وغيرها من المراكز التي اتخذها الفرنسيون لتجارة الرقيق في غرب إفريقيا (18).

وظهرت شركات عدة منها شركة السنغال الملكية للتجارة لإدارة هذه المراكز التجارية(19) التي ذاع صيتها في تجارة الرقيق، وحققت أرباحا طائلة من هذه التجارة، كما وضعت الأساس لنفوذ فرنسا في السنغال الذي انتهى بتكوين ما عرف بإفريقيا الغربية الفرنسية(Afrique Occidental Francaise) (20).

وإذ كان أمر اصطياد العبيد في المراحل الأولى لم يكن يمثل صعوبة كبيرة بالنسبة للمستعمرين الأوروبيين، وخاصة وأن هذه العملية كانت تقع بالقرب من المراكز التجارية لهم ، فإن عملية التجارة في الرقيق قد أخذت مع بعض الوقت ومع زيادة الطلب على هذه السلعة للأدمية أبعادا ضخمة، واستخدمت فيها إمكانيات كبيرة(21).

وكان عامل تفوق الأوروبيين في الأسلحة يسمح لهم بعرض أنفسهم على الأفراد والمجتمعات الإفريقية بسهولة. ولم يكن في وسع السيوف والحراب والأسهم أن تقف في مدة طويلة في مواجهة الأسلحة النارية والبنادق، حتى وإن كانت جديدة العهد في ذلك الوقت. وكان هذا التفوق الأوروبي يسمح للعناصر المستعمرة أنفسهم باصطياد الأهالي الذين يدفعهم سوء حظهم إلى الاقتراب من محطاتهم. ثم اخذ الأوروبي يستعين ببعض الأهالي التابعين له، أو المواليين له، ويستخدمهم في مساعدته في هذه العملية(22).

ولعل الحروب بين قبائل "الأشانتي" وقبائل "الفانتي" التي أشعلت نيرانها لفترة غير قصيرة في منطقة ساحل الذهب ، والدور الذي لعبه الفرنسيون والانجليز في إذكاء نار هذه الصراع الدموي ليسر لهم الحصول على حاجاتهم من الرقيق ويعطي مثلاً لهذا التطور الذي طرأ على وسائل ممارسة هذه التجارة نتيجة حاجة الأوروبيين الماسة للرقيق الإفريقي (23)

وفي هذا الصدد ولشدة الحاجة للرقيق الإفريقي ، وقف وزير المستعمرات البريطانية "اللورد دار ثوث" متحديا المنادين بالحد من هذه التجارة البشرية بقوله: «إننا لا نسمح بأي حال بعرقلة هذا النشاط الذي ثبت انه عظيم الفائدة لشعبنا»(24).

وفي كيفية التعامل مع هذه السلعة من حيث التقدير النقلي . يقسم الذكور إلى أربعة أقسام في السعر من 50 فرنك إلى غاية 6 فرنك ، وأما الإناث فيقسمون إلى ثلاثة أقسام للبيع من 1.250 فرنك إلى 4.500 فرنك(25)، ويتم تحديد سعر العبيد حسب المكان المشتري منه العبد(26).

ليس من السهل علينا ضبط التعداد الحقيقي للعبيد الذين يتم نقلهم إلى ما وراء البحار، والسبب يرجع إلى نسبة الوفيات العالية وسطهم، فيتراوح معدل الوفيات من 7 و26% ، و طول مدة الرحلة التي تستغرق من 5 إلى 8 أسابيع ،ناهيك عن الأمراض والقتل،والرمي في عرض البحار في حالة عدم قدرة السفينة على الشحن (27).

أما عن الأماكن التي كان يصدر منها العبيد فيعتبر الشريط الساحلي لغرب إفريقيا أهم المناطق لتوريد العبيد. ففي العقد التاسع من القرن الثامن عشر، عندما كانت تجارة العبيد عبر الأطلسي في ذروتها، كانت الصادرات السنوية من مختلف قطاعات الساحل على النحو الآتي:

- سنغامبيا: 2200
- سيراليون: 2000
- ساحل الذهب: 10.000
- ساحل الرقيق ابنين: 12500
- دلتا النيجر إلى الكمرون: 22000.

ومن هذه الأرقام يمكن أن نرى أن المنطقة الممتدة من ساحل الذهب إلى الكمرون كانت المسئولة عن 82% من جميع الرقيق الذين تم شحنهم من إفريقيا الغربية في ذلك الوقت(28).

ورغم تفاوت عدد الرقيق(29) من قرن إلى قرن فقد نقلت كل من بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات، ونقلت هولندا نحو 18% وفرنسا نحو 12%، بينما كان نصيب الولايات المتحدة الأمريكية 5% وكانت السيطرة للبرتغال على تجارة القرنين الخامس والسادس عشر، وهولندا خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر، ولبريطانيا في الفترة بين 1672، 1808م بعد ذلك كانت السيادة لسفن الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وأسبانيا وفرنسا(30).

أما أماكن وصول الرقيق الأفارقة الذين تم تصديرهم عبر المحيط خلال 1451/1870م يمكن حصرها في المناطق التالية:

- العالم القديم (أوروبا والجزر الإفريقية): 175000.

- أمريكا الشمالية والوسطى: 651000.

- جزر الكاريبي: 4040.000.

- أمريكا الجنوبية: 4700.000.

ومن خلال هذه الأرقام يتأكد لنا مرة أخرى أن العالم الجديد نال حصة الأسد في استقبال الرقيق الأفارقة، ليتم توظيفهم في مزارع قصب السكر والمحاصيل الأخرى(31).

ان صائدي العبيد كانوا يقيدون العبيد بالسلاسل بعضهم ببعض ويسIRON بهم مئات الأميال ويدمغونهم بالأختام الحمأة مثل الماشية لتمييزهم باسم الملك لهم، وينقلونهم عبر البحار في سفن العبيد المرعبة، يكدسونهم فيها في ظروف من الجوع والقسوة التي لا توصف، ثم يبيعونهم للسادة المستعمرين مثل الماشية(32).

ويصف "ماك ماستر" الصور المزعجة لسفينة العبيد قائلاً: «عندما تغرب الشمس ينزل الجميع إلى الأسفل وكانت المساحة المتاحة لكل واحد يرقد فيها كانت ستة أقدام طولاً وستة عشرة بوصة عرضاً، وكانوا ينامون على الأرض، وكان السوط يستخدم لإجبارهم على

الالتصاق بعضهم البعض في أضيق المساحة، وكان من المستحيل لأي منهم أن يتقلب ذات اليمين أو ذات الشمال إلا يعاني كل الصف من الفوضى والاضطراب، ولكن مأساة الليل لا تساوي شيئاً بالنسبة لمآسي اليوم العاصف لأنهم كانوا يحيطون المراكب بالأقمشة السمكية فتمنع الهواء وتصير الأرض مبللة غارقة بالعرق، وكانت صيحات الألم ترتفع من أفواه الزنوج وتسمع في أعلى السفينة وكان من الأمور العادية أن يقذف بأجساد الموتى في البحر، ولم يكن من النادر أن تبلغ الوفيات على ظهر السفينة ما يصل إلى ثلث العبيد فيها. وأحياناً ما كان قراصنة السفينة بسبب خشيتهم من نقص المياه أو بسبب إحساسهم بالخطر من الأسر، كانوا يقذفون بالحمولة البشرية الحية من أعلى ظهرها لتأكلها أسماك القرش، وعلى الرغم من كل هذه الخسائر فإن أرباح تجارة العبيد كانت تصل إلى الألف في المائة في الرحلة الواحدة» (33).

إن الانحطاط الآدمي في سعيه وراء الربح لم يغرق إلى هذا هذه الأعماق المتدنية مثل ما حدث في تجارة الرقيق (34).

وقد ذكر "بلاك W.o.Blake" في كتابه " تاريخ العبودية " History of Slavery الصادر سنة 1857م. أنه في شأن موت العبيد في الطريق فإن " مستر فالكون" بريدج Falkon Bridge " ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى 1100 عبد وفقد منهم 191، وان "تروتر Trotter" ذكر أنه في رحلة واحدة كان هناك 6000 عبد وفقد 70 منهم، وذكر ميلر " Miller" أنه في رحلة واحدة كان هناك 490 وفقد 180، و"إليسون Elison" ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى 850 وفقد 365، و" مورلي Morley" ذكر أنه في أربع رحلات اشترى حوالي 1325 وفقد 313 وكلاكتون "Claxton" ذكر أنه في رحلتين كان هناك 250 وفقد 132، وكل هؤلاء كانوا من تجار العبيد الانجليز (35).

وقد وصلت تجارة الانجليز مثلاً في الرقيق الإفريقي إلى أعلى ذروة لها قبيل حرب الاستقلال الأمريكية، وتعاونت في هذه لتجارة موانئ " لندن وبريستول، ولانكستر"، وبلغ عدد السفن الانجليزية التي تعمل في ما يقارب من مئتي سفينة و تقرب حولتها من 48 ألف عبد، وقد تفوق ميناء ليفربول على غيره وقام في عام 1787م بنقل نفس العدد المصدر

إلى العالم الجديد، وزادت هذه النسبة بعد ذلك حتى أصبحت سفن هذا الميناء وحده تنقل ما يقرب من ستة أسباع مجموع العبيد(36).

وهناك قصص كثيرة يصعب ذكرها وحصرها عن تلك المعاناة والمعاملة القاسية التي كان يواجهها أبناء القارة . ونأخذ مثالا آخر لتلك الأعمال الوحشية لسفينة المجليزية تدعى (زونج Zong) أبحرت سنة 1781م في رحلتها عبر الأطلنطي وهي محملة بكامل حولتها من العبيد ،وعندما أكتشف الربان أن مياه الشرب غير كافية لهذا العدد الذي تحمله السفينة وخوفا من هلاك ركابها فقد تم إلغاء حوالي 132 عبدا في عرض البحر حتى يتمكن من استرداد قيمة الخسارة من شركة التأمين وبالفعل تم تعويض السفينة بواقع 32 جنيهها إسترلينا عن كل عبد وذلك على اعتبار أن هذا الرقيق عبارة عن ممتلكات أو متاع لا التضحية به لفقدت كل الشحنة وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك وأقرت انه لا تنطبق على أصحاب السفينة أية جريمة من جرائم القتل(37).

ولعلنا نتساءل هنا من هم المستفيدون من تجارة العبيد؟ فنجيب هم :

- الشركات الرأسمالية الأوروبية.
- القوى الطبقية المسيطرة داخل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.
- الإرساليات التبشيرية المسيحية.
- أصحاب المزارع والمصانع والمناجم من الأوروبيين و الأمريكيين.
- زعماء القبائل من الأفارقة.
- صيادو الزنوج الأفارقة (الجلابة) أو (قناص العبيد) (38).

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة يتحتم علينا أن نتطرق إلى النتائج المترتبة عن هذه التجارة على شعوب المنطقة الإفريقية في مختلف المجالات الحياتية وهي على النحو الآتي :

- حرمان القارة الإفريقية من بعض الكفاءات الثقافية النادرة التي كانت تمتلكها آنذاك،حيث كان من بين العبيد المنقولين إلى العالم الجيد وأوروبا طائفة من المسلمين الذين كانوا يتقنون اللغة العربية ويقرؤونها، وقد تحدث " ولبرفورس " Wilbelforce " عن

شحنة من الزوج تشمل 130 فردا من بينهم 25 يكتبون اللغة العربية. ويشهد لذلك أن مكتبة هارفارد تتضمن 5 أو 6 مخطوطات عربية لعبيد أفارقة (39).

- أجبرت غرب إفريقيا على تصدير أغلى مواردها الخام (الأيدي العاملة) حيث نقل ملايين الفلاحين والحرفيين للعمل في المزارع والمناجم الأمريكية، وحققوا بذلك أرباحا وثروات ضخمة، ورفاهية لشعوب أوروبا وأمريكا.

- نجم عن هذه التجارة استيراد كميات ضخمة من الأسلحة والبارود مما أحدث ثورة في مجال القنص والقبض على الرقيق، وعلى هذا فان الطلب على الأسرى من الرقيق سار جنبا إلى جنب مع الطلب على الأسلحة النارية، وقد ساعد هذا الازدواج على انتشار الحروب والصراع بين القبائل الإفريقية فأحدث دمارا في الإنتاج وفتكا بالقوى البشرية وتشيتا للسكان، كما أثار الفزع والخوف في نفوس الناس، وعندما بدأ التكالب الاستعماري الأوروبي على القارة الإفريقية كان الانقسام والتشتت طابع الجماعات البشرية وهذا ما سهل على الغزاة مهمتهم في السيطرة على أجزاء القارة الإفريقية المختلفة (40).

- أصيبت المجتمعات الإفريقية من جراء هذه العمليات الاستنزاف والحروب المستمرة للهزات عنيفة حطمت العلاقات التي كانت قائمة بين الأفراد والمجتمع وخلخلت النظام القبلي بما كان يفرضه من علاقات بين الأفراد.

- كانت هذه العمليات وبالا على الحضارات الإفريقية، وكما ذكر الكاتب الأمريكي الزنجي " وليم تشانسيلور": « هل بعد كل الذي عانته القارة نتيجة تجارة الرقيق لازلنا نتساءل عن السبب في تأخر الأفارقة الحضاري» (41).

- سوء معاملة الرقيق أثناء نقلهم إلى أوروبا والعالم الجديد. فكان هؤلاء يعاملون معاملة الحيوانات، فكانوا يقيدون بالسلاسل الحديدية ويحشرون في المراكب وكثيرا منهم توفي بسبب الأمراض والاختناقات وعدم التغذية وكانت جثثهم ترمى في البحر وهم في طريقهم إلى الأراضي الجديدة. وقد امتلأت كتب البحارة بوصف هذه الرحلات الفظيعة أمثال كتابات "دنهام"، "و بارث"، "وريتشارد" (42).

- نهب ثروات المنطقة الاقتصادية والقضاء على أي مظهر من مظاهر النشاط الاقتصادي فيها(43).

ولا يسعنا في نهاية هذه الورقة إلا الاستشهاد بالباحث الانجليزي "دافيدسن" حينما يكتب عن تجارة الرقيق التي قام بها الأوروبيون فيقول: «لم تكن تجارة العرب للزنج إلا نكبة خفيفة على أطراف القارة وفي داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديدا حين شرعت السفن الأوربية تنقل آلاف الشباب من الداخل والساحل، وتدمي الحياة في القارة والنخاسة أصبحت على يد الأوروبيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاحت أوربا، فقضى فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها، بل أسوأ، لأن النتائج الاجتماعية كانت أشد قسوة من الموت، فالوباء الذي تعرض له الأوروبيون انقضى، وانقضت معه آثاره، ولكن القهر الذي تعرض له الإفريقيون والذي عاشوه، لم تكن لتتقضي آثاره، ولم يجتج الموت الأسود أوربا إلا عددا من السنوات، بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصدا وتهدد معنويات من بقي أكثر من أربعة قرون»(44).

والخلاصة فإن تجارة الرقيق ورواجها من منطقة غرب إفريقيا عبر الأطلنطي قد أدت إلى عملية استغلال منظم لثروات المنطقة لصالح القوى الأوربية والتي تمثلت في استغلال الثروة البشرية، وتبع ذلك عمليات استغلال مستمرة ومنظمة للثروات والمواد الخام الأخرى بالمنطقة بعد استعمارها وإعادة تشكيل أوضاعها الاقتصادية بما يتلاءم مع الظروف والأوضاع الجديدة وذلك من اجل نهب أكبر قدر من هذه الثروات بأدنى التكاليف، ولقد كان لهذا النهب أثره حتى بعد استقلال دول غرب إفريقية التي لا تزال تعاني لحد اليوم من آثار هذه التجارة على مختلف الأصعدة (45).

الهوامش :

- (1) - جمال زكريا : العرب والرق في إفريقيا، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ، تونس، 1989م، ص19.
- (2) - لقد وجد الاسترقاق منذ وجد الإنسان على الأرض، فكان الإنسان القوي يستعبد الإنسان الضعيف، بل ويتخذنه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتره. وعندما انتشرت الحروب عم الاسترقاق جميع أنحاء العالم وصار المنتصرون يبقون على حياة الأسرى لاستخدامهم في كافة الأعمال المختلفة، وبذلك صار الرق نظاما مسلما به في العالم. انظر: دي. فيج. جي. تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة، يوسف نصر، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1982م، ص163.

(3) - خطاب صكار العاني: دور حركات الاستكشاف البحري والحركة التجارية الأوربية في تجارة الرقيق، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ،تونس، 1989م ،ص 90.

(4) - إن اصطلاح غرب إفريقيا ،والسودان الغربي كلاهما يدل على ما نسميه بمنطقة غرب إفريقيا التي تمتد في القارة من بحيرة تشاد في الشرق حتى ساحل المحيط الأطلسي في الغرب ،وتقع عند خط عرض 17.9 شمال خط الاستواء على وجه التقريب ، وهي جزء من السودان الغربي ، والأوسط ، ويمتد السودان الغربي حسب هذا المفهوم من ساحل السنغال حتى حدود نيجيريا الشمالية، ونقطة ارتكازه هي حوض السنغال ، وحوض نهر النيجر الأعلى والأوسط. أي هي أن المنطقة التي تطل غربا وجنوبا على المحيط الأطلسي ، وتحدها الصحراء الكبرى شمالا ، ومن الشرق تتلاخم بحيرة تشاد.

انظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل : دراسات في تاريخ غرب إفريقيا ، مكتبة الإسكندرية ، مصر، 1989م، ص 5. و الهادي المبروك الدالي : التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999 م ، ص 19.

(5) - الخليل النحوي: إفريقيا المسلمة الهوية الضائعة، ط1، دار الغرب الإسلامي ، لبنان، 1993م، ص 86.

(6) - في سنة 1471 م حط البرتغاليون على ساحل ما يسمى اليوم بدولة غانا والجزر المقابلة له فوجدوا الذهب بكميات هائلة فاحتكروا تجارته من خلال إنشاء قلعة ضخمة في مدينة "Elmina" وأطلقوا على تلك المنطقة اسم ساحل الذهب.انظر: محمد فاضل وسعيد إبراهيم: المسلمون في غرب إفريقيا، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007م. ص ص 155-156.

(7) - فيصل محمد موسى : موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا، 1997م، ص ص 78-79. كان البرتغاليون حينما بلغت البرتغال أوج سلطانها وسيادتها البحرية، أول من قام بعمل الرحلات البحرية الاستكشافية لشواطئ إفريقيا الغربية والجنوبية، وكانت تحذوهم في ذلك رغبان: الأول محاولة اكتشاف طريق بحري دائري إلى الهند، والثانية محاولة الحصول على الذهب، حيث كانت الأساطير تتركز حول وجود مناجم الغنية في غرب إفريقيا.انظر: محمد عبد الله عنان: اكتشاف إفريقيا ومأساة تقسيمها، الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1995م، ص 262.

(8) - الخليل النحوي: المرجع السابق، ص 87.

(9) - شوقي عطا الله الجمل: دور المجتمع الغربي في تطور تجارة الرقيق، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم ،تونس، 1989م ،ص 37.

(10) - نفسه.

(11) - محمد رزوق : دراسات في تاريخ المغرب، ط1، إفريقيا الشرق، 1991م، ص 8.

(12) - نفسه، ص 9. كانت وسيلة البرتغاليين في تجارة الرقيق أن تتكون الشركة التي عمادها احد الأشراف الذي يستطيع السفر أولا إلى الأملاك الإسبانية في العالم الجديد، أو يستطيع الاتصال بأحد الأشراف الأسبان في إسبانيا، حيث يحصل منه على عقد بتوريد عدد من الرقيق حتى إذا نجح في ذلك أسرع إلى البلاط البرتغالي ليحصل على مرسوم باحتكار التجارة في منطقة ما من الساحل الإفريقي. وإذا ما انتهى الأمر معه إلى ما يريد أسرع بإرسال عدد من السفن

إلى المنطقة التي أرادها، فبيدأ ببناء الحصن ويستخدم عددا من العاطلين وقطاع الطريق والمجرمين البرتغاليين ويتعاقد معهم على أن يعملوا هناك كحامية للحصن. انظر: رياض زاهر استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1965م، ص 64.

(13) - يحي بوعزيز: الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 67.

(14) - محمد رزوق: المرجع السابق، ص 9.

(15) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة، 1998م، ص 17.

(16) - نفسه.

(17) - شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 42.

(18) - نفسه، ص 43.

يرجع إنشاء المراكز التجارية الفرنسية إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد تعرضت هذه المراكز للمضايقات من جانب البريطانيين، بسبب تزعم بريطانيا لحركة مقاومة تجارة الرقيق، ومحاصرة أسطولها لشواطئ إفريقيا في بعض الأحيان لمنع هذه التجارة. انظر: حلمي محروس: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ج 1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2004م، ص 270.

(19) - نفسه.

(20) - شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 43.

(21) - جلال يحي: تاريخ إفريقيا الحديث، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ص 181.

(22) - نفسه.

(23) - شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 43.

(24) - نفسه، ص 44.

(25) - un Ancien Diplomate : L'esclavage en Afrique letouzey et Ane Editeur: Paris. 1890. P8.

(26) - Gyut,yves: le commerç et le commerç, octave Doin et fils. Paris. 1909. P22.

Henri, Feuilleret : Mungo Park sa Vie et Ses Voyage. edition. Alvred Mame et Fils. 1880. PP122-123. انظر:

(27) - Robert. Cornevin: Histoire de L'Afrique. tome 2. Paris. 1966. P367.

(28) - هوبكنز. ر. ج : التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1998م، ص 205.

(29) - يرى بعض الباحثين أن عدد الزوج الذين اقتنصوا أو أخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون لم يصل منهم سلا إلى أمريكا ويصبح صالحا للعمل في مزارعها أكثر من 8.5 مليون باعتبار أن من كل عشرة زوج يموت

تسعة في البر من جراء الغزوات وفي البحر، وهم مكდسون في قاع السفن وعند وصولهم بعد ما لاقوا من العذاب ألوانا. ويؤكد المؤرخ الزنجي " دويوا " أن عدد الزوج الذين وقعوا في أسر القناصة خلال هذه القرون بما لا يقل عن مائة مليون إفريقي. انظر: صبري أبو الجذ: ثورة إفريقيا، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1960م، ص 43.

(30) - محمد عبد الغني سعودي: قضايا إفريقيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1980م، ص ص 80-81.

(31) - هوبكنز. ر. ج. : المرجع السابق، ص 206.

(32) - عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا، ط 1، مكتبة الشروق الدولية، 2007م، ص 38.

(33) - نفسه، ص 39.

(34) - نفسه، ص 38.

(35) - نفسه، ص 39.

(36) - جلال يحيى: المرجع السابق، ص 189.

(37) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص ص 18-19.

(38) - مسعود ظاهر: موقف الرأسمالية من الرق دراسة في المنهج، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، تونس، 1989م، ص ص 147-148.

(39) - الخليل النحوي: المرجع السابق، ص ص 88-89.

(40) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص ص 31-32.

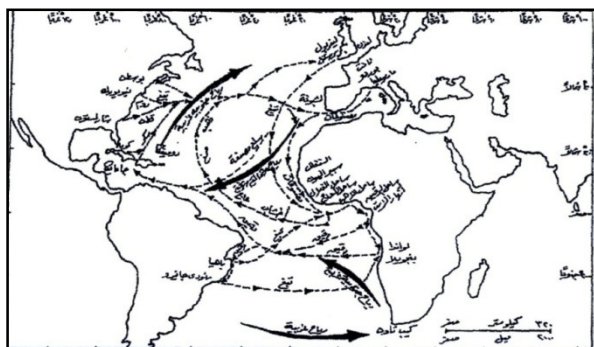
(41) - شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص 51. و دنيس بلوم: الحضارات الإفريقية، منشورات دار مكتبة الحية، بيروت، لبنان، 1974م، ص 146.

(42) - فيصل محمد موسى : المرجع السابق، ص 87.

(43) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص 34.

(44) - محمد عبد الغني سعودي: المرجع السابق، ص ص 83-84.

(45) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص 35.



* خريطة تجارة الرقيق عبر المحيط
الأطلسي في القرن الثامن عشر
المرجع: هوبكنز. ر. ج. - المرجع
السابق، ص 200.